على سوء فعلوه، وهذه من أوسع أبواب التربية الربانية أن يواجه السوء بحسن على قدرة: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾:

من شروطات الإيمان بالله - الأصيلة - عدم التفرقة بين الله ورسله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾[2] وبين الله، ولا بينهم أنفسهم، لأنهم كلهم يحملون رسالة الله دون تفرّق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾[3].

وهنا يعبر عن المفرقين بين الله ورسله إيماناً ببعض وكفراً ببعض بـ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ حيث التفرقة هذه كافرة ناكرة لله، فإن الكفر برسالة من الله، مزودة بآية من الله قاطعة، إنه في الحق كفر بالله، وإلّا فلماذا الكفر برسالة منه ساطعة المنار؟.

والتفرقة بين الله ورسله دركات، منها ادعاء الإيمان بالله والكفر بكلِّ رسالات الله، ارتياحاً عن عبء التكاليف الإلهية مع الحفاظ على الإيمان المدعى كما يدعيه المشركون والموحدون غير الكتابيين.

ومنها دعوى الإيمان بالله وبالبعض من رسالاته دون بعض، تهوّداً أو تنصراً، أم - وعوذاً بالله - دعوى الإسلام ونكران سائر الرسالات أم بعضها الآخر.

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.

ومنها الإيمان برسالة البعض ودعوى ألوهية بعض كمن يؤلِّهون المسيح عليه السلام تفريقاً بين هذا الرسول وسائر الرسل في كيان الرسالة.

ومنها الإيمان بعصمة البعض منهم دون بعض تدنيساً لساحة الرسالة على المأثومين في زعمهم.

ومنها الإيمان بالله وكلِّ رسالاته، اقتساماً لشرعته إلى مفروضة ومرفوضة، كمن يدعى: الإسلام ثم يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض كسائر أهل الكتاب الكافرين بالبعض الذي يُبشِّر بمجيء الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[1] هذه وسائر التفرقات بين الله ورسله، أو بين رسله، أو بين رسالاته، كلها من مخلَّفات الكفر بالله ورسله مهما ادعوا الإيمان بالله أم وبرسله، فكل كفر بوحدة الرسل فيما حُمِّلوه ووحدة الرسالة، هو كفر بوحدانية الله، وسوء تصور لقضيتها الرسالية الرسولية.

ولأن ذلك نفاق في الإيمان يشكِّل خطراً عارماً على بسطاء الإيمان فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وكما هم أهانوا سماحة الإيمان وأظلموا ساحته.

هؤلاء المنافقون في ادعاء الإيمان ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًاۤ﴾ بشقِّ العصا شَطْرَيْنِ أو أخذها من الجانبين، وليس هنالك إلّا كفرٌ طليقٌ أو إيمانٌ طليقٌ مهما اختلفت الدركات أو الدرجات.

ذلك، وقد تجري هذه المنافقة لكلِّ من لا يسلم وجهه لله ورسالته تماماً، كالمؤمن بهذه الرسالة والناكر لاستمراريتها في المعصومين من آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شرط أن يكون مُقصِّراً، فأما القاصر فهو خارج عن أحكامه إلّا في الإشراك بالله إذ لا قصور فيه.

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

وترى الكفر فيه حق وباطل ليكون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾؟ الحق هنا لا يقابل الباطل، وإنما تعني حاق الكفر وعمقه المتكامل فيه، فحق الباطل هو حاقه وكامله دون إبقاء.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾:

هؤلاء الأكارم يعاكسون أمر الإيمان وجاه المنافقين فيه حيث لم يفرِّقوا أي تفريق في حلقات الإيمان ومتعلّقاته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۚ﴾ فإذا تسرَّب منهم لممٌ من ذلك التفريق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر من يستغفره ويرحم من يسترحمه.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾:

ذلك السؤال العضال نجده في المشركين: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥۗ﴾[1] واليهود: ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ لكي نراه ونسمعه يوحي إليك، وأهل الكتاب ككلٍّ ﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ ويكأن الله هو ساكن السماء حتى ينزل كتاب وحيه على رسوله منها، وهل إن هذه السماء بكتابها أسمى من سماء الوحي البيِّنة في القرآن العظيم، فقد يأتي كتابٌ من السماء من الله أو سواها وليس في سموِّه كوحي القرآن النازل من سماء الرحمة المتميزة الإلهية على قلب النبيِّ الأُميِّ.

فما ذلك السؤال وأمثاله إلّا نتيجة الجهل والنكران، تعنتاً على الحق

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.

وتعنداً ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ﴾ البعيد البعيد ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ يبيِّن الحق صراحاً ناصعاً لا غُبارَ عليه.

وهنا ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ﴾ عرض لأجهل ما سأله أهل الكتاب في مسرح الكتاب، إذاً فـ: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعمُّهم إلى النصارى وسائر أهل الكتاب، ولو عنت ﴿أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ خصوص اليهود لجيء بخصوصهم دون طليق ﴿أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[1].

ولأن ذلك السؤال كان في خِضمِّ نزول القرآن في العهد المدني وهم كانوا يسمعونه ولا يرعونه، فسؤالهم ﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ نكران لوحي القرآن إذ لم ينزل جهاراً من السماء، انعطافاً إلى مكان من السماء وانحرافاً عن مكانة القرآن الذي يحلق على الأرض والسماء!.

وقد يعني ﴿كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ - فيما عنى - كتاباً من الله إليهم أن محمداً رسولي والقرآن كتابي[2] رغم أن القرآن نفسه دليلٌ قاطعٌ لا مرَّد له على الأمرين، برهان لا يُساوى ولا يُسامى بأي برهان.

ثم كيف ﴿سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ﴾ والسائلون إياه هم الغابرون دون الحاضرين في ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؟ لأنهم كلهم - إلَّا قليل - في سلك واحد وأقله كونهم راضين بما سأل وفعل أسلافهم، وكما ينسب القرآن أفعالاً من

(١) الدر المنثور أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن موسى جاءنا بالألواح من عند الله فائتنا بالألواح من عند الله حتى نصدقك فأنزل الله: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ - إلى - بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا﴾ [النِّساء: ١٥٣-١٥٦].
وفيه عن ابن جريح قال: إن اليهود والنصارى قالوا لمحمد ﷺ: لن نبايعك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان أنك رسول الله وإلى فلان أنك رسول الله فأنزل الله: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [النِّساء: ١٥٣].

(٢) ج ١: ٤٤٧ الفرقان على ضوء الآية ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ...﴾ [البَقَرَة: ٦٣].

الغابرين إلى الحاضرين بنفس السبب، مما يدل على أن الراضي بفعل قوم هو منهم وكما ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ يعني القاعدين مع الخائضين في آيات الله.

وهنا الإجابة بـ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ تنديدة شديدة وتهديدة أن ينالهم ما نال السائلين موسى عليه السلام من أخذ الصاعقة إياهم، ﴿ثُمَّ﴾ ولم ينتبهوا عن غفوتهم حيث ﴿اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ استبدالاً بالله العجل في رؤيته وعبادته، ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ الحَنْثِ العظيم - لا عنهم - فلم نستأصلهم عن بكرتهم فإنما قلنا لهم ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[1] تخفيفاً عن ثقل الحنث ثم:

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾:

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ بكامله ترهيباً رعيباً ﴿بِمِيثَاقِهِمْ﴾ حيث إن سبب رفعه كان ميثاقهم الذي نقضوه أو أرادوا نقضه كما فصلناه في البقرة (١) فاستحكمه الله بِنَتْقِ الجبل فوقهم.

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ﴾ باب القدس ﴿سُجَّدًا﴾ خُضَّعاً لله ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ فقد كان رفع الطور فوقهم مسرحاً لإيثاق الميثاق الغليظ عليهم أن ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ...﴾[2] ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾[3].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾:

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٣.

لقد نقضوا ميثاقهم على معاهدة شرعة الله وكفروا - إذاً - بآيات الله، وقتلوا أنبياء الله وقالوا - لما ندَّد بهم ووُعظوا - قلوبنا غلفٌ: لا تعي ما توعون ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ طبعاً بعد انطباعها بما زاغوا ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[١] [٢] ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ منهم، أو وقليلاً من الإيمان، فالمؤمنون منهم قلَّة، وإيمان القلَّة منهم قلَّة، اللّهم إلّا الأقلُّون كما قال الله عنهم ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾[٣].

وإنهم أولاء الحاضرين في ذلك الخطاب «لم يقتلوا الأنبياء وإنما قتلهم أجدادهم فرضي هؤلاء بذلك فألزمهم الله القتل بفعل أجدادهم فكذلك من رضي بفعل فقد لزمه وإن لم يفعله»[٤].

﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦﴾:

فقد بهتوها بالزنى وبذلك كفروا حيث أخرجوا بذلك المسيح عليه السلام من جمعية الرب وكما في مختلقة كتابية[٥] فلا يعني البُهتان الذي هو من أسباب كفرهم أنهم بهتوا مريم - فقط - بالزنى، بل وخلفيته العظيمة أن روح الله المسيح عليه السلام وليد زنى وهو مع الأبد ممنوع عن الدخول في جمعية الرب.

وذلك البهتان العظيم هو مثلثة الجهات: أنها - وعوذاً بالله - زنت، وأن المسيح وليد زنى دون وسيط، ثم وهما وليدا زنى بوسائط عظماً في ثالوثهم المنحوس على مريم وعيساها وآبائهما، والنبيون وسائر المعصومين

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) الدر المنثور ٢: ٢٣٨ - أخرج البزار والبيهقي في الشعب وشعفه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهك الحرمة وعمل بالمعاصي واجترأ على الله بعث الله الطابع فطبع على قلبه فلا يقبل بعد ذلك شيئاً.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٩.
(٤) نور الثقلين ١: ٥٦٨ في تفسير علي بن إبراهيم قال: هؤلاء..
(٥) راجع ج ١٦: ٣١١ - ٣١٢ من الفرقان تجد فيه تفصيل التهمة.

هم أنوار في أصلابٍ شامخةٍ وأرحامٍ مطهَّرة لم تنجسهم الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسهم من مدلّهمات ثيابها.

أجل و«إن رضا الناس لا يملك وألسنتهم لا تضبط ألم ينسبوا مريم ابنة عمران أنها حملت بعيسى من رجل نجّار اسمه يوسف»[١].

هكذا يهتك ساحة القدس الرسالي للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ويقابله تأليهه من آخرين، وهناً

يُخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً: «إن لك من عيسى مثلاً أبغضته اليهود حتى بهتوا أُمَّهُ وأحبته النصارى حتى أنزلوه المنزل الذي ليس له»[٢].

وما أجمعه كفراً جماع الرأي من أهل الكتابين بحصيلة: أن المسيح عليه السلام وهو وليد زنى، هو الله، أم هو ابن الله، بهتان عظيم على الله وعلى أفضل عباد الله!.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾:

آية وحيدة منقطعة النظير حول نكران صلب المسيح عليه السلام حافلة لما تقولوا فيه وواقع الحال الغائبة عنهم فما يملكون هؤلاء المضلّلون بشأنه والمضلَّلون إلَّا ظناً وزعماً خاوياً.

وقد اختصرت القصة في «آل عمران» ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ

(١) نور الثقلين ١: ٥٦٨ في أمالي الصدوق بإسناده إلى الصادق عليه السلام حديث طويل يقول فيه لعلقمة يا علقمة: . . .

(٢) الدر المنثور ٢: ٢٣٨ - أخرج البخاري في تاريخه وصححه عن علي عليه السلام قال قال لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

كَفَرُوا. . .﴾[(١)] وهنا التفصيل، ثم لا نجد ثالثة في القصة فإنهما تكفيان حسماً لمادة الشبهة والظِّنة.

ولقد ذكر من مواد كفرهم هنا أمران اثنان: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴿١٥٧﴾﴾.

فكفرهم في المادة الأولى هو فريتهم على معصومين عدة أنهم من مواليد الزنى خلاف نصوص الوحي الصارم بعصمتهم ورسالتهم.

وهو في المادة الثانية أن خرافة صلب المسيح عليه السلام المختلقة عليه خلّفت أساطير كتابية ضدَّه وضدَّ كافة الرسالات الإلهية.

فليست قصة صلبه عليه السلام - فقط - كَذِبة تاريخية مجردة لا تستحق إلَّا التكذيب، بل هي قصة ذات أبعادٍ بعيدةٍ عن ساحة الإيمان فضلاً عن الرسالة القدسية العيسوية وسائر الرسالات، وقد يأتيكم نبأها بعد حين.

وهنا ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ هي قولة اليهود حسب ظنهم حيث ألقوا عليه القبض - في زعمهم - فقتلوا المزعوم أنه المسيح عليه السلام.

وترى هؤلاء قالوا إنهم قتلوا رسول الله تصديقاً لرسالته؟ أن ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ هو كلمة الله وهم نسبوه إلى أب زانٍ! وكذلك ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ وهم مكذبوه! إنها منهم تهكم بدعواه الرسالة قائلين ومستهزئين ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾! ثم إن فرقة من النصارى تقوَّلوا أنه قتل الله أو ابن الله مهما كان في ناسوته أم سواه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ هما معاً تكذبان كلَّ أنواع القتل بالنسبة للمسيح عليه السلام، ولأن سَلْبَ القتل قد لا يسلب الصلب، لذلك يتقدَّم صلبه «ما قتلوه»، كما أن سلب الصلب لا يسلب كلّ أنواع القتل

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٥٤، ٥٥.

ولذلك يتأخر عن «ما قتلوه» استئصالاً عن ساحته كلّ أنواع القتل: صلباً كما يزعمون أم غيره من خَنْق أمّاذا كما قد يزعمون ذلك! ولأن قتلاً ما بحساب المسيح عليه السلام كان واقعاً لا مردّ له بإجماع أعدائه وأحبائه، فما هو الحلّ في ذلك البين؟.

إنَّه ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ شبه القتيل لليهود أنه المسيح فأخذوه وصلبوه.

وترى من ذا الذي ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾؟ أهو واحد من حواريه؟ وهو ظلم بالبريء! وفسحٌ لمجال قتله للظالم القاتل!.

أم هو الذي قدّمه للصلب مَكْراً واحتيالاً في ذلك الاغتيال! إنه واردٌ عدلاً من الله كما وهو مستفيض نقله أن يهوذا الأسخريوطي الذي باعه بثمن بخس دراهم معدودة، ألقى الله شبه المسيح عليه السلام عليه فقبض وصلب بديله.

هؤلاء هم اليهود الذين ظنوا صلبه دون خلاف، ثم اختلف فيه محبِّوه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾: وهنا محاولة مسيحية لتعقيم الآية عن تكذيب الصليب:

فقد خيِّل إلى بعض المبشرين المسيحيين[1] أن ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ تعني «خيِّل إليهم» فهم - إذاً - مشتبهون في قصة الصلب؟.

ولكن ذلك التخريج المريج ماذا ينفعه إلَّا أنهم لا يعلمون صلبه إلَّا شبهة وهكذا يقرِّر القرآن بسائر ألفاظ الآية دون فائدة زائدة لذلك التخييل العليل، على أن ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ راجع إلى اليهود، ثم النصارى ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ . . .﴾!.

(١) هنا لنا حوار مع الحداد في كتابه (مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي) فصّلناه في (عقائدنا) ١٨٣ - ١٨٨ نختصره هنا كما يناسب الفرقان.

وهنا في فاعل ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ محتملات يعتمد المؤوّل على أنه المسيح عليه السلام أن شبّه لهم بغيره فظنوه غير المسيح! وسائر ألفاظ الآية تقضي على ذلك التخريج التحريج.

إنما ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ القتيل المصلوب بالمسيح أن ألقى الله شبه المسيح عليه فاشتبهوا في أمره فظنوا أنهم صلبوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾.

ذلك، وما المشاكل المزعومة في ذلك التشبيه، بعد الإياس عن أي تأويل إلّا اضطراب القتيل.

فإلقاء شبه إنسان على آخر لمصلحة ملزمة آية رسالية من الله لمرة واحدة على مدار الزمن لا يفتح باب السفسطة، وإنما سدَّ هنا باب المرطقة الصليبية على المجازفين فيها.

فلا يعني ذلك الإلقاء لمرة يتيمة أن الله يلقي شبه كلَّ إنسان على آخر على طول الخط، كما لا يعني حية العصا لموسى أن كلَّ عصا تبدل حية تسعى، ولا خروج الجمل عن الجبل لصالح أن كلّ جبل يخرج منه جمل، ولا إشارة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى القمر حيث انشق بها القمر، أن كلَّ إشارة من كلٍّ مشير إلى القمر ينشق بها القمر.

وأما أن الله أيَّده بروح القدس فهل عجز هنا عن تأييده فاضطَّر إلى هذه الحيلة؟ فذلك التأييد الأكيد هو الذي نجاه من ذلك القتل اللعين ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[1] وهم يتقولون أنه صلب هكذا وبكل مهانة ومذلة فأين - إذاً - ذلك التأييد!.

فهل إن إلقاء شبهه على عدوِّه ورفعه إلى السماء عجز ومهانة، وإلغاؤه في ذلك المسرح اللعين قوة وكرامة؟!.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.